

الرؤية التجديدية في النحو العربي عند تمام حسان

أ.د: دليلة مزور

doctora_dalima@yahoo.fr

جامعة باتنة 1 - الجزائر

مقدمة:

لقد ظل تراثنا اللغوي العربي محط اهتمام من قبل الباحثين والدارسين حيث توحدت الرؤى ، وبانت المقاصد التي تقودها النوايا العلمية الدقيقة التي تدفع كل الغيورين على هذا التراث بإعادة بعثه من جديد ، واستخراج مكنوناته ، وجعله أداة معرفية حقّة ، تحمل الفكر وتبين النظر العلمي الدقيق . كل هذا من أجل الوقوف على الغايات الكبرى التي وضعها القدماء وضاعت منا في وقت سابق ، بل غفلنا عنها ، ورحنا نبحث في الدرس الغربي ونلهج بذكره ، ونتغنى بنظرياته. ظلنا منا أنّ أسلافنا لم يحققوا شيئا يستحق الالتفات والمراجعة .

لقد كانت الدراسة اللافتة للنظر ، والجديرة بالاهتمام تلك التي قدمها لنا تمام حسان ؛ هذا الرجل الذي حمل التراث في فكره وقلبه ، وانكب عليه يفحصه ردحا من الزمن ، لعله يظفر بما يرفع من قدره ، ويبيّن للقاصي والداني أننا أمة فكر وحضارة لسان أبدي . راقب فيه النسيج المحبوك ، والفكر العميق ، والدرس الفاحص ، فأخرج لنا نظرية القرائن التي نلمسها في بطون الكتب نحو: الجرجاني في دلالته وابن الحاجب في كافيته ، وأبو حيان الأندلسي في

اللغة العربية ذات نظام لغوي مركب من ثلاثة أنظمة هي النظام الصوتي، والصرفي، والنحوي، الذي ينبني على المعاني النحوية فتكون جملا أو مفردات، وما تعلق بالجمال نحو: الأمر والنهي، والإثبات والنفي،

والاستفهام والأمر، وما تعلق بالمفردات نحو: الفاعلية والمفعولية، والمبتدأ والخبر... وتجتمع هذه الأنظمة تحت لواء القرائن اللفظية و القرائن المعنوية .

ودرس النحو لا يمكن أن يتم إلا في إطار هذه القرائن، ذلك هو المنهج النحوي العربي الحديث الذي رسمه تمام لعمله التجديدي، وقد اتخذ من المنهج الوصفي أداة للعلاج يقول في فاتحة كتابه: "والغاية التي أسعى وراءها بهذا البحث أن ألقى ضوءاً جديداً كاشفاً على التراث اللغوي العربي كله منبعثاً من المنهج الوصفي في دراسة اللغة"¹.

اطلع تمام حسان على التراث النحوي ودقق النظر فيه، ووجد فيه ما لا حاجة للنحو به نحو نظرية العامل التي عدّها خرافة، وتلمس في التراث ما يمكن الاهتداء به، أو تناول أفكاره لبعثها من جديد لما فيها من جدة وعمق . إنها نظرية النظم وما يحيط بها من تفسيرات تعين على فهم نظام النحوي أحسن فهم، وترقى به إلى أعلى الدرجات.

بدأ تمام حسان في نقد نظرية العامل والدعوة إلى إلغائها تدريجياً؛ إذ نقضها بإيراد البديل المتمثل في القرائن التي شغلت اهتمامه، وعمد يفسر ويصف ؛ إذ نجده يقف عند كل قرينة بخلاصة يبين فيها فساد نظرية العامل ، وعدّها مجرد مبالغة وقع فيها النحاة جرهم إليها التقليد ، يقول : " وبهذا يتضح أن العامل النحوي و كل ما أثير حوله من ضجة لم يكن أكثر من مبالغة أدى إليها النظر السطحي والخضوع لتقليد السلف و الأخذ بأقوالهم على علاتها"².

وغير بعيد عن نظرية العامل عرض تمام حسان للعلامة الإعرابية وأبان قصورها في الدلالة، إذ أنها لا تقوم على تفسير المعنى كله، وإنما هي واحدة من مجموعة قرائن تعمل مجتمعة على خدمة المعنى

1 - العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، 1979 م ، ص 10 .

2 - المرجع نفسه، ص 207 .

وتبيانه، يقول: " لم تكن العلامة الإعرابية أكثر من نوع واحد من أنواع القرائن بل هي قرينة يستعصى التمييز بين الأبواب بواستطها حين يكون الإعراب تقديريا أو محليا أو بالحذف"³.

وهي "لا تعين على تحديد المعنى، فلا قيمة لها بدون ما أسلفت القول فيه تحت اسم تظافر القرائن"⁴ وبهذا يكون موقفه معتدلا؛ حيث أزال شبهة الأفكار المتطرفة التي جعلت من العلامة أكبر مفسر للمعنى، أو ألغت وظيفتها وعدتها مجرد حركات جيء بها للانسجام الصوتي⁵.

ففي نظره لا بد من توجيه النحو وفق النموذج الوصفي التطبيقي الذي رسمه لمعالجة آراء النحاة التي شابهها كثير من القصور و الاضطراب، " وإذا كان العامل قاصرا عن تفسير الظواهر النحوية و العلاقات السياقية جميعها، فإن فكرة القرائن توزع اهتمامها بالقسطاس بين قرائن التعليق النحوي معنويها ولفظيها ولا تعطي للعلامة الإعرابية منها أكثر مما تعطيه لأية قرينة أخرى من الاهتمام"⁶.

إنه من اللافت للنظر أن نؤكد أن العلامة الإعرابية لا تعني وجود العامل النحوي عند تمام حسان ، فقد ألغى العامل ، وانتظمت العلامة في سلسلة القرائن المكلفة بالبحث عن المعنى ؛ فهي لا ترتبط بالتركيب إلا من جهة المعنى و بهذا يكون قد حوّل أول مسار للنحو العربي وهو العلامة الإعرابية من الاتجاه الشكلي إلى الاتجاه المعنوي؛ حيث أبعدها عن التفسير السطحي الذي وضعه فيها النحاة، فهذا التحويل لإخراج النحو من المنهج المعياري إلى المنهج الوصفي الذي اتسمت به الدراسات العربية الأولى⁷ ودعت إليه الدراسات الحديثة .

وقف تمام كثيرا عند القرينة الإعرابية وأبان بطريق الوصف والتحليل القائم على استحضار النصوص المختلفة من القرآن وكلام العرب جوانب القصور فيها، ومن أمثلة ما أورده نذكر :

3 - اللغة العربية معناها و مبناها ، ص 205 .

4 - المرجع نفسه ، ص 207 .

5 . هذا الرأي يمثله قطرب وإبراهيم أنيس .

6 - اللغة العربية معناها و مبناها ، ص 232 .

7 - تمام حسان ، اللغة العربية بين المعيارية و الوصفية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1958 م ، ص 35 .

1. خرق الثوبُ المسمارَ؛ فالتمييز بين الفاعل والمفعول به كان بالاعتماد على قرينة الإسناد، فالخرق لا يسند للثوب و إنما للمسمار .
2. جحرُ ضبٍ خربٍ، وهنا يظهر ما أسماه العرب الجر بالمجاورة، أو قرينة التبعية التي أغنت عن قرينة المطابقة في الإعراب .
3. ونظر في قوله تعالى: (عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ)⁸ وتوصل إلى أن "خُضْرُ جرت على التبعية وهو إعراب دعت إليه أسباب جمالية بحثة لا علاقة لها بالمعنى الوظيفي وذهب ابن خالويه إلى أن هذه الآية قرئت بوجهين، بالرفع والخفض فأما وجه الرفع ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ﴾. جعل "خضر" نعتاً للثياب وأما وجه الجر، فهو نعت لـ "سندس"⁹. فهو نعت لسندس وهي قراءة الجمهور.
- وأما ابن أبي عبله وأبو حيوة فقراءتهما بالرفع "ثيابُ سندسٍ خضرٌ". وأما ابن كثير وعاصم وشعبة وابن محيصةن فقرأوا بالجر "ثيابُ سندسٍ خضرٍ"¹⁰
- وأما عن قوله تعالى: (إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ رَانَ)¹¹ اختلف النحاة والقراء في تخريج هذه الآية ، والذي عليه أبو حيان الأندلسي أنها لغة كنانة التي تجري المثني بالألف دائماً.
- ثم إنه خرجها على أن " إِنْ " هي المخففة من الثقيلة " وهذا " مبتدأ و" لساحران " الخبر و اللام للفرق بين إِنْ النافية وإِنْ المخففة من الثقيلة على رأي البصريين والكوفيين يزعمون أن " إِنْ " نافية و اللام بمعنى إلا "¹².

8 - الإنسان /21.

9 - ابن خالويه ، الحجة في القراءات السبع ، تحقيق وشرح عبد العال سالم مكرم ، مؤسسة الرسالة - بيروت - ط6 ، 1417 هـ - 1996 م ، ص 359

10 - البحر المحيط ، ج 8 ، ص 399.

11 - طه /63 .

12 - البحر المحيط ، ج 6 ، ص 238.

فالأمثلة التي ساقها تمام حسان تمثل المناسبة الصوتية، وهو نظام صوتي تسعى إلى تحقيقه اللغة وإن كان على حساب العلامة الإعرابية .

فقد وردت قراءات على سبيل الاتباع نحو قراءة " الحمد لله " بكسر الدال و كسر اللام تباعا لها. يقول ابن خالويه: " وقرأ الحسن ورؤية " الحمد لله " بكسر الدال فأتبع الكسر الكسر ، وذلك أن الدال مضمومة ، وبعدها لام الإضافة مكسورة، فكرهوا الخروج من ضم الكسر إلى كسر، فأتبعوا الكسر الكسر "13.

يؤكد ابن جني أن الترخص في الإعراب من أجل تحقيق الانسجام الصوتي شاذ في الاستعمال والقياس، ولكن أكثر استعماله عند العرب حتى صار كالجاء الواحد، يقول: " إن هذا اللفظ أكثر في كلامهم و شاع استعماله، وهم لما أكثر في استعمالهم أشد تغييرا ... فلما اطردها هذا و نحوه لكثرة استعماله أتبعوا أحد الصوتين الآخر وشبهوهما بالحاء الواحد وإن كانا جملة من مبتدأ و خبر "14.

ويذهب الزمخشري إلى أن مثل هذه القراءة هي لغة ضعيفة، ويرفض أن تُصدّر العلامة الإعرابية بحركة الإتياع¹⁵ وقال أبو جعفر: سمعت علي بن سليمان يقول: لا يجوز من هذين شيء عند البصريين وهاتان لغتان معروفتان موجودتان في كل واحدة منهما علة "16.

هذه أمثلة من القرآن وكلام العرب حدث فيها الترخص في العلامة الإعرابية، اتخذها تمام دليلا على عدم كفاية الإعراب في تفسير المعنى، إذ بين الخطأ المنهجي الذي وقع فيه النحاة حينما عدوا الإعراب فرع المعنى، واضطربوا في تفسير المعنى يقول: "و حين قال النحاة قديما إنَّ الإعراب فرع المعنى كانوا في

13 - إعراب ثلاثين سورة، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار الهدى عين مليلة- الجزائر-ص34.

14 - المحتسب، ج1، ص111.

15 - الكشف، ج1، ص62.

16 - أبو جعفر النحاس، إعراب القرآن، ج1، ص17.

منتهى الصواب في القاعدة وفي منتهى الخطأ في التطبيق؛ لأنهم طبقوا كلمة المعنى تطبيقاً معيباً حيث صرفوها إلى المعنى المعجمي حيناً، والدلالي حيناً، ولم يصرفوها إلى المعنى الوظيفي¹⁷.

فالنظرة النحوية القديمة كانت تعامل الإعراب على أنه النحو كله¹⁸، وكذلك المعنى نجده يطلق على الوظائف النحوية، ويراد به الموقف أو السياق أو المقام¹⁹.

وإلى التحليل نفسه يذهب حماسة عبد اللطيف الذي وافق تمام حسان في طروحاته؛ إذ الإعراب من الوجهة النظرية يقابل التعليق الذي قال به عبد القاهر الجرجاني؛ وأما من الوجهة التطبيقية هو العلامة الإعرابية التي تلتزم أواخر الكلم²⁰.

ولكن النصوص التي ساقها تمام للاستدلال على الترخص في العلامة الإعرابية تعد غير كافية، وبعبارة النحاة لا يقاس عليها. فقد ذكر السيوطي: "وسمع رفع المفعول به ونصب الفاعل، حكوا خرق الثوب المسمار، وكسر الزجاج الحجر... والمبيح لذلك كله فهم المعنى وعدم الإلباس، ولا يقاس على شيء من ذلك"²¹.

فهذه الأمثلة لا يمكن إدراجها ضمن قواعد اللغة، لأنها ليست مطردة ولا يجوز القياس عليها، فهذا النوع يمثل خروجاً عن القاعدة؛ فاللغة "لا تترخص في قرائن الجملة جزافاً بل يكون ذلك في مواقع خاصة، وبحيث لا يمثل هذا الترخص قاعدة عامة يمكن النسخ على منوالها"²².

17 - مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1979 م، ص 227.

18 - ينظر أحمد سليمان ياقوت، ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم، ص 16، 17.

19 - ينظر حماسة عبد اللطيف، العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001 م، ص 220.

20 - ينظر المرجع نفسه، ص 227.

21 - همع الهوامع، تحقيق عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، 1977. 1397 م، ج 3، ص: 8.

22 - العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث، ص 320.

انكب تمام حسان على التراث النحوي العربي، وغرف من ينابيعه الأصيله، ووقف على آراء في غاية الدقة والعلمية، تنبض بالفكر التجديدي، وتضع النحو في مساره الصحيح، ففكرة القرائن لم تكن من اختلاقه، بل كانت نتيجة قراءة واعية للتراث حيث " التقط الخيط بمهارة بارعة وجذبه في رفق فانجذبت بقية الخيوط المتشابكة مع الخيط الدقيق الذي لم يحكم القدماء نسجه وأعاد نسجه من جديد فكانت نظرية القرائن النحوية"²³.

فالجرجاني أحد الذين أدركوا دور الإعراب في تعميق المعنى داخل التركيب ، كما أبان دور قرينة الرتبة ، ويتجلى ذلك في قوله تعالى: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)²⁴ و قوله: (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا)²⁵ فالاشتعال هو للشيب في المعنى، وإن كان للرأس في اللفظ؛ فالعلاقة الدلالية بين عناصر التركيب هي دلالة الشمول التي لا يمكن تحقيقها بتغيير الإسناد نحو: اشتعل شيبُ الرأس، أو اشتعل الشيبُ في الرأس، بل لا يجوز اللفظ أكثر من ظهوره في الجملة ونظيره قولك: اشتعل البيتُ نارا، فيكون المعنى أنَّ النار وقعت في كل البيت على وجه الشمول، ولا يفيد هذا المعنى إذا قلنا: اشتعلت النار في البيت ، فقد تكون في جزء منه . ومثله المعنى في قوله تعالى: (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا) الذي يفيد الشمول، وأن الأرض كلها صارت عيوناً، وامتألت ماء. ويتناقض المعنى إذا قلنا: و فجرنا عيون الأرض²⁶. أو فجرنا العيون في الأرض، ويفهم منه أن العيون قد تفرقت في الأرض فغاية الجرجاني " إظهار قيمة النحو وأثرها الجمالي وليس دراسة النحو أو إعادة وضعه الجديد في إطار نظرية متكاملة"²⁷.

يقف ابن يعيش على القرائن اللفظية، مبينا الأحكام النحوية. يقول: " اعلم أن المبتدأ والخبر جملة مفيدة تحصل الفائدة بمجموعها؛ فالمبتدأ معتمد الفائدة، والخبر محل الفائدة، فلا بد منهما، إلا

23 - العلامة الاعرابية في الجملة بين القديم والحديث ، ص 283 .

24 - مريم/4.

25 - القمر/12.

26 - دلائل الإعجاز، ص92-93.

27 - العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث، ص287.

أنه توجد قرينة لفظية أو حالية تغني عن النطق بأحدهما، فيحذف لدلالاتها عليه، لأن الألفاظ إنما جئ بها للدلالة على المعنى، فإذا فهم المعنى بدون اللفظ، جاز أن لا تأتي به، ويكون مرادا حكما وتقديرا "28. فالمبتدأ والخبر عنصران متلازمان لإفادة المعنى، ويحذف أحدهما بوجود قرينة يقول ابن مالك :

وحذف ما يعلمُ جائزُ كما تقولُ زيدٌ بعدَ منْ عندكَمَا

وفي جوابٍ كيفَ زيدٌ قلُ دنفُ فزيدٌ استغنى عنه إذ عُرِفَ²⁹

" فالذكر قرينة لفظية ، والحذف إنما يكون بقرينة لفظية أيضا ولا يكون تقدير المحذوف إلا بمعونة هذه القرينة وأهم القرائن الدالة على المحذوف هي الاستلزام وسبق الذكر وكلاهما من القرائن اللفظية الداخلة في مفهوم التضام "30.

وأما الرضي الاسترابادي فقد فصل الحديث عن القرائن اللفظية والمعنوية، ووقف عند قرينة الإعراب وبيان وظيفتها في التمييز بين الفاعل والمفعول به، يقول: " إذا انتفى الإعراب اللفظي في الفاعل والمفعول معا مع انتفاء القرينة الدالة على تمييز أحدهما عن الآخر، وجب تقديم الفاعل، لأنه انتفت العلامة الموضوعية للتمييز بينهما أي الإعراب المانع، والقرائن اللفظية والمعنوية التي قد توجد في بعض المواضع دالة على تعيين أحدهما من الآخر كما يجيء، فليلزم كل واحد منهما مركزه ليعرفا بالمكان الأصلي. والقرينة اللفظية كالإعراب الظاهر في تابع أحدهما أو كليهما نحو: ضرب موسى عيسى الظريف، واتصال علامة الفاعل بالفعل نحو: ضرب موسى حبل، أو اتصال الضمير الثاني بالأول نحو: ضرب فتاه " موسى " والمعنوية نحو: أكل الكمثرى موسى، واستخلف المرتضى المصطفى -صلى الله عليه وسلم- ونحو ذلك "31.

28 - شرح المفصل، ج1، ص239.

29 - ابن هشام ، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، ص 78-79.

30 - اللغة العربية معناها ومبناها ، ص 221 .

31 - شرح الكافية ، ج1 ، ص 166 .

فالإعراب وثيق الصلة بالرتبة التي تعد قرينة لفظية تعويضية تعمل على رفع اللبس بتظافر قرائن أخرى وجدت في التركيب نحو الصفة التي تحدد الفاعل من المفعول به في الأسماء المقصورة ، أو الضمير المتصل، والضمير العائد .

فانتفاء الإعراب لا يقيد التركيب بالتزام رتبة واحدة ، ما دامت هناك قرائن لفظية أخرى تزيل اللبس و تبين المعنى نحو : ضرب فتاه موسى ؛ حيث تقدم المفعول على الفاعل .

وإضافة إلى القرائن اللفظية هناك قرينة معنوية تعمل على التمييز بين الفاعل والمفعول به حين تنعدم العلامة الإعرابية .

لقد قدم الرضي أساساً لفكرة القرائن النحوية حين بيّن أن الإعراب في بعض حالاته لا يكون فاصلاً بين المعاني، وهنا تلجأ اللغة إلى طرائق أخرى للفصل بين المعاني منها : الرتبة، و المطابقة، و الإسناد، و السياق . فكل من هذه العلامات تقوم مقام الإعراب في تبين المعنى و توضيحه .

فالنحاة عرفوا القرائن وأشاروا إليها وبينوا دورها في جذب خيوط المعنى غير أنهم لم يجعلوها " أساساً للتناول النحوي، بل يعتمدون عليها في مواضع محددة، وبفهم يقرب أو يبتعد عن الفهم الذي تكاملت به عند أستاذنا الدكتور تمام حسان "32.

ميز تمام حسان بين ثلاثة معاني هي: المعنى الوظيفي، و المعنى المعجمي، و المعنى الدلالي. و يقصد بالمعنى الوظيفي المعاني النحوية كالفاعلية و المفعولية و الإضافة، و أما المعنى المعجمي فهو ذلك المعنى المستخلص من الكلمات المفردة و مجموع هذين المعنيين يكون لدينا معنى المقال، أو المعنى اللفظي للسياق ،

و بعبارة علماء الأصول ظاهر النص ، و تمثل هذه المعاني ما يسميه حسان المعاني المقالية التي ترتبط بفنون الكلام ، فتكون تراكيب وجملاً تخضع للتحليل و النقد .

32 - العلامة الإعرابية بين القديم والحديث، ص383.

أما المعاني المقامية الحالية فيمثلها مجموع المعاني السابقة يضاف إليها السياق فتعطينا المعنى الدلالي³³.

1- المعنى الوظيفي: كما بينه تمام حسان " مجموعة من العلاقات التي تربط بين المعاني الخاصة حتى تكون صالحة عند تركيبها لبيان المراد منها وذلك كعلاقة الإسناد والتخصيص ، والنسبة والتبعية، وهذه العلاقات في الحقيقة قرائن معنوية على معاني الأبواب الخاصة كالفاعلية و المفعولية³⁴.

2- وأما المعنى المعجمي: فهو لا يعكس بأي حال صحة المعنى في التركيب، وهو غير ضروري للكشف عن عملية التعليق. وقد مثل له تمام بيت من اختلاقه. يقول فيه :

قاصّ التجينُ شِحَالُهُ بِتَرْدِيسِيهِ فَاخِي فَلَمْ يَسْتَعْفُ بِطَاسِيَةِ الْبَرْنِ³⁵

ومن شروط المعنى المعجمي المحافظة على الخصائص العربية للحروف والمباني والعلاقات النحوية³⁶.

3- المعنى الدلالي: هو المعنى المستخلص من السياق والظروف الاجتماعية التي تحيط بالنص وهو أشمل من سابقه . وقد مثل له بطالب في مدرسة ثانوية يريد إشعال سيجارة فلم يجد ما يوقدها به، فيتجه إلى ناظر المدرسة قائلا له: "تسمح بالولاعة؟"

فالظروف المحيطة بالموقف تبعث على الدهشة والعجب حينما يسقط الطالب كل بنود الاحترام، وهو في المدرسة لأجل تعلم الأدب والأخلاق، نجده يتصرف بسوء أدب³⁷.

33 - اللغة العربية معناها ومبناها، ص182 ، ينظر تمام حسان إلى السياق على أنه يمثل جزء المعنى " ففي الغالبية العظمى من أمثلة دلالة السياق يجد المرء قدرا عظيما من الكمال في الدلالة على المعنى". ينظر اللغة بين المعيارية والوصفية، ص121.

34 - المرجع نفسه، ص178.

35 - البيت من بحر الكامل، وهو لا معنى له.

36 - اللغة العربية معناها و مبناها، ص182-183.

37 - المرجع نفسه، ص358.

بسط تمام حسان الحديث عن القرائن المعنوية واللفظية، ووقف عند كل نوع منها بالتحليل والتمثيل، و بين شبكة العلاقات التي تكونها العناصر المتألفة داخل التركيب . فالإسناد قرينة معنوية تفسر العلاقة بين الفعل والفاعل أو المبتدأ والخبر و تميزهما عن بعضهما. والتخصيص كبرى القرائن؛ لأنها العلاقة التي تحكم الإسناد والتعدية .

والمعية قرينة معنوية أيضا تدل على المفعول معه والمضارع بعد الواو. وقرينة الظرفية تدل على المفعول فيه، والتحديد قرينة دالة على المفعول المطلق، وقرينة الملابس تدل على الحال، وقرينة التمييز تدل على التمييز، وقرينة الإخراج تدل على الاستثناء، وقرينة المخالفة تدل على الاختصاص . وقرينة النسبة تدل على الجر والإضافة، وأما قرينة التبعية فهي قرينة التوابع نحو: النعت و التوكيد ، والبدل والعطف³⁸.

أما القرائن اللفظية فهي لا تقل أهمية في بيان المعنى عن القرائن المعنوية، وأول هذه القرائن، القرينة الإعرابية التي جعل منها النحاة نظرية كاملة، وجعلها تمام حسان جزءا من نظرية أسماها : تظافر القرائن.

وإلى جانب الإعراب هناك قرينة الرتبة و الصيغة، والمطابقة، والربط، والتضام والأداة، و النغمة³⁹. ومجموع هذه القرائن أطلق عليها التعليق، ونستند إليها عند إيراد المعنى الوظيفي أو عند الإعراب، وهي البديل عن نظرية العامل⁴⁰.

أما القيم الخلافية أو ما أسماه التطيرز اللغوي، فيأمل أن تطرح فكرا و أسسا " يمكن أن تنبني عليها نظرية نحوية شكلية تامة، ليس لها ما لنظرية العامل من التناقض، والحاجة إلى التأويل و التمحك "⁴¹.

38 - اللغة العربية معناها و مبناها ، ص 191-204.

39 - المرجع نفسه، ص 205-226.

40 - المرجع نفسه، ص 182-183.

فالتعليق من أهم المصطلحات التي جاءت بها نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني و تأثر به تمام حسان، بل وتبناه في دراسته التجديدية؛ حيث أعاد بعثه من جديد لندرك قيمته في خدمة المعنى يقول: " و لعل أذكي محاولة لتفسير العلاقات السياقية في تاريخ التراث العربي إلى الآن هي ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني صاحب مصطلح التعليق "42.

ويمضي في الكشف عن أسرار التعليق، الذي تفوق أهميته نظرية النظم، ثم إنه يجد له تفسيراً عن طريق الربط بين العلاقات المعنوية بواسطة القرائن ، يقول: " وأما أخطر شيء تكلم فيه عبد القاهر على الإطلاق فلم يكن النظم و لا البناء والترتيب وإنما كان " التعليق " و قد قصد به في زعمي إنشاء العلاقات بين المعاني النحوية بواسطة ما يسمى بالقرائن اللفظية و المعنوية و الحالية "43.

يرى تمام حسان أن فكرة التعليق التي نادى بها هي نفسها التي قال بها الجرجاني إلا أن عملية استقراء نصوص الدلائل تؤكد خلاف ذلك وإن كانت في المنحى العام تبدو واحدة .

فالجرجاني ربط بين المعنى المعجمي و المعنى الوظيفي و أكد على أهميته في إبراز المعنى وتقوية النظم، يقول: " و معلوم علم الضرورة أن لن يتصور أن يكون للفظلة تعلق بلفظة أخرى من غير أن تعتبر حال معنى هذه مع معنى تلك . ويراعى هناك أمر يصل إحداهما بأخرى، كمرعاة " نبك " جواباً للأمر في قوله قفا نبك: وكيف بالشك في ذلك. ولو كانت الألفاظ يتعلق بعضها ببعض من حيث هي ألفاظ، ومع إطراح النَّظَر في معانيها لأدى ذلك إلى أن يكون الناس حين ضحكوا مما يصنعه المجان من قرءاء أنصاف الكتب ضحكوا عن جهالة ، وأن يكون أبو تمام قد أخطأ حين قال :

عدلاً شبيهاً بالجنون كأنمًا قرأتُ بهِ الوُرْهَاءُ⁴⁴ شَطْرَ كِتَابِ⁴⁵

41 - مناهج البحث في اللغة، ص 241.

42 - اللغة العربية معناها ومبناها، ص 186.

43 - المرجع نفسه، ص 188.

44 - الورهاء: هي الحمقاء.

45 - البيت من بحر الكامل ، ينظر: دلائل الإعجاز، ص 300-301.

أما تمام حسان فقد فصل بين المعنيين: المعجمي والوظيفي وهذا الفصل جعله يتعد عن مفهوم التعليق و فكرته عند الجرجاني .

و يمضي في فصله بين المعنى والإعراب قائلا: " و لو كان الإعراب فرع المعنى الدلالي ما استطعنا كذلك أن نَعرب قول المجنون بن جندب :

مَحْكُوكَةُ الْعَيْنَيْنِ مِعْطَاءُ الْقَفَا كَأَنَّمَا قُدَّتْ عَلَى مَثْنِ الصَّفَا

تَمْثِيِي عَلَى مَثْنِ شِرَاكٍ أَعْجَفَا كَأَنَّمَا يُنْشَرُ فِيهِ مُصْحَفَا⁴⁶

فإن أبا العلاء العماني لم يستطع تفسير ذلك ولم يستطع ذلك أبو عبيدة ولا الأصمعي ولا أبو زيد، و قال أبو زيد إنه كلام مجنون و لا يعرف كلام المجانين إلا مجنون "⁴⁷.

فاللغة ليست قوالب جامدة يصب فيها الكلام، وإنما هي وظيفة اجتماعية قائمة على الفهم و الإيفهام . فعدم وضوح الرؤية عنده في التمييز الدقيق بين المبني و المعنى جعله ينساق وراء افتراضات غير علمية عندما عمد إلى نظم بيت شعري من كلمات هرائية، عديمة الدلالة يقول:

قاصَ التَجِينُ شِحالَهُ بِتَريسيهِ فَاخي فلمْ يَستَعفْ بِطَاسِيَةِ البرنُ⁴⁸

فعزالدين المجذوب الذي استوقفه هذا الافتراض اللغوي مدركا خطورته و النتائج التي ترتبت عنه يقول مستنتجا " ولعل أخطر ما ترتب عن غموض مصطلح المبني وهو غموض يصيب بالضرورة مصطلح معنى "⁴⁹.

ثم يستدرك معلقا على البيت الشعري، وما هدف إليه تمام من خلال عرضه هذا يقول: " و التحقيق عندنا في ما ذكر أن البيت المذكور لا يمثل إلا توليفا لعناصر التعبير وفق القوانين المسيرة لها في اللسان العربي و لا يمثل ما ذكر بأيِّ حال مستوى نحويا. فالتحو عندنا إحاطة بالقوانين المفسرة لاتتلاف

46 - البيتان من بحر الكامل.

47 - اللغة العربية معناها ومبناها، ص183.

48 - المنوال النحوي العربي، قراءة لسانية جديدة، ص326.

49 - المرجع نفسه، الموضوع نفسه.

ثوابت المضمون حسب مستويات من التركيب و التشعب مختلفة، تتعالق حسب طرق غير متوقعة دائما مع صعيد التعبير ومستوياته المختلفة، ولعل موقفه هذا نتيجة أيضا من نتائج فصله في النظام اللغوي بين المعاني من جهة و المباني من جهة ثانية⁵⁰.

و يسوقنا التحليل إلى إيجاد علاقة بين ما ذهب إليه تمام و ما دعا إليه تشومسكي في استقلال التركيب عن الدلالة⁵¹.

ولعلنا لا نخالف الصواب إذا قلنا إن المنهج الوصفي الذي طبقه **تمام حسان** على فروع أنظمة اللغة، أصابته سلبياته القائمة على الفصل بين الشكل و المعنى. غير أنه في فصله هذا لم يهمل المعنى، بل نظر إليه نظرة جديدة مخالفة للوصفيين.

فالفصل بين المعنى المعجمي و المعنى الوظيفي يزري باللغة بل يضيق من دائرة المعنى، و يبعده عن دائرة البلاغة و النظم الذي قال به الجرجاني " إن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق"⁵².

فالألفاظ ملازمة للمعاني، ولا تنفك عنها، ولا يمكن أن نتصور تعليقا أو نظما فصل فيه بين المعنى المعجمي و المعنى الوظيفي.

فعبد القاهر يؤكد أكثر من مرة التلازم الشديد بين المعاني المعجمية و المعاني الوظيفية (الإعراب)، و نراه يدقق الوصف وهو يتحدث عن التعليق الذي لم يتجاوز المعاني النحوية، يقول: " ليس الغرض

50 - ينظر: تيرينيس موور، وكريستين كارلنغ - فهم اللغة: نحو علم لغة لما بعد مرحلة تشومسكي ترجمه حامد حسين الحجاج - دار الشؤون الثقافية العامة بغداد -1998 م، ص 61، وميشال زكريا الألسنية التوليدية و التحويلية و قواعد اللغة العربية (النظرية الألسنية) - المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع. ط1، 1402 هـ -1982 م، ص 110.

51 - عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات و اللغة العربية، ص71.

52 - الدلائل، ص58.

بنظم الكلم إن توالى ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها و تلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل ... و لو فرضنا أن تنخلع من هذه الألفاظ التي هي لغات ، دلالتها لما كان شئ منها أحق بالتقديم من شيء . ولا يتصور أن يجب فيها ترتيب و نظم "53. فهل بعد هذا يمكن القول بفكرة واحدة للتعليق عند الجرجاني و تمام حسان ؟ كما أنه لا يمكننا القول باختلاف المعاني الوظيفية والمعاني المعجمية .

وبأي حال فإن التعامل مع القرائن لا ينفك عنه اللجوء إلى المعاني المعجمية للوقوف على حقيقة كل قرينة " وإلا فمن أين لي أن أعرف أن هناك علاقة إسناد بين التلميذ والمجتهد في الجملة : التلميذ مجتهد، إذا لم أكن أعرف المعنى المعجمي لكل من التلميذ والمجتهد "54 .

جعل تمام فكرة القرائن بديلاً عن العامل النحوي، وأي بديل ؟ إذا ما تعلق الأمر بالسهولة و اليسر ووضعنا هذه بجانب تلك فأياً أقرب إلى الفهم، و أيسر في التطبيق ؟ ذلك أن إعراب جملة نحو : "ضرب زيد عمرا" لا بد من استحضار سبع قرائن للكشف عن أن "زيد" فاعل ، وخمسة قرائن لمعرفة أن "عمرا" مفعول به55 .

أما قرينة الإعراب، فهي لا تنفك أن تكون واحدة من القرائن اللفظية المساعدة على بيان المعنى، غير أن تمام قلل من حدتها في كثير من المواضع لا سيما عندما يكون نصيبها في المعنى ضئيلاً . و محصول القول : إن ما أقدم عليه تمام حسان لا سيما في كتابه "اللغة العربية معناها و مبناها" يعد أجراً محاولة قام بها بعد سيبويه والجرجاني56 .

فالنموذج الجديد الذي قدمه تميز بطابع الوصفية التطبيقية وكان بمقابل النموذجين النحويين لمدرستي البصرة والكوفة . إلا أنه في تطبيقه للمنهج الوصفي خرج بجديد خالف فيه مبدأ من مبادئ الوصفيين و هو دراسة اللغة المنطوقة، حيث أضاف إليها دراسة اللغة المكتوبة57 .

53 - الدلائل، ص56.

54 - ظاهرة الإعراب في النحو العربي، ص83.

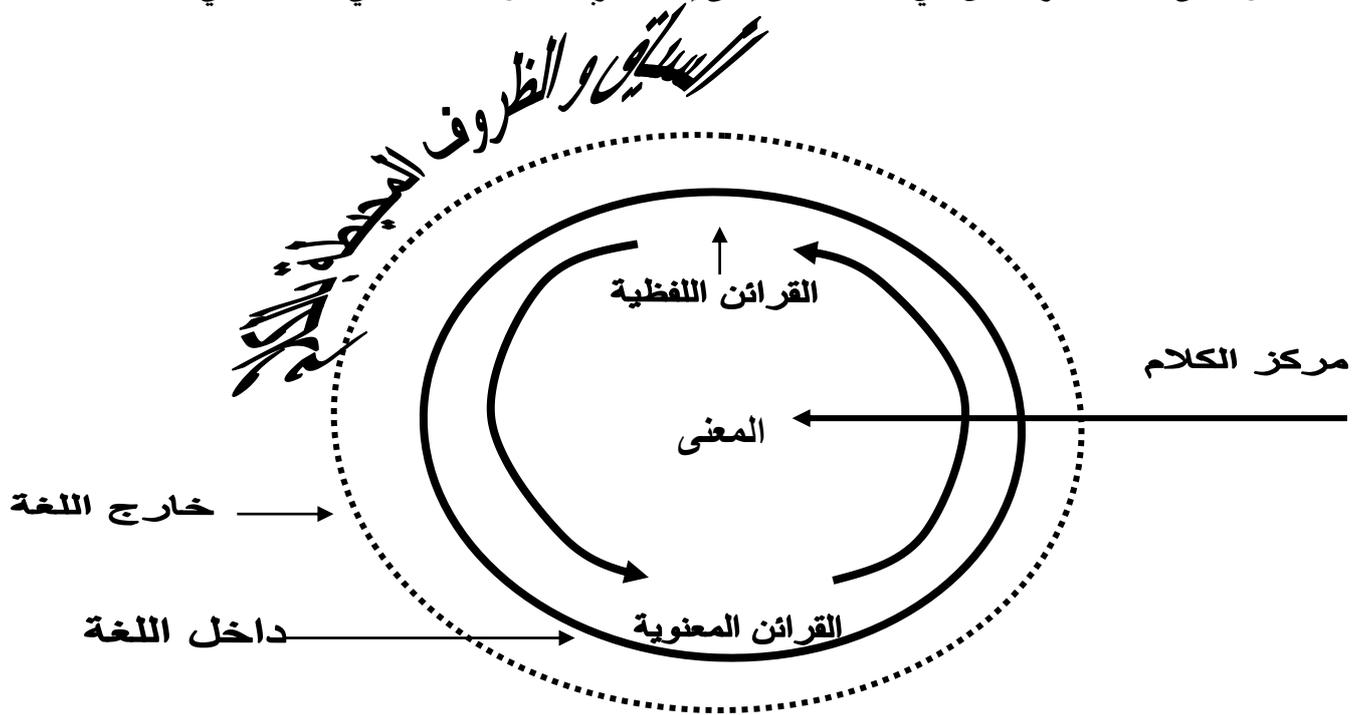
55 - اللغة العربية معناها ومبناها، ص192.

56 - المرجع نفسه، ص10.

و يمكن حصر خصائص النموذج الذي طرحه تمام حسان فيما يلي :

- دراسة النحو في إطار منهج متكامل يرصد دقائق اللغة من الداخل ومن الخارج، ويتتبع مسائلها بالوصف والتحليل المستنديين إلى التطبيق لا التنظير فحسب .
- الربط بين علم النحو و علم المعاني بالاستناد إلى آراء سيويوه والجرجاني فالأول كان منهجه تحليليا و الثاني تركيبيا⁵⁸.

و يمكن تمثيل دائرة المعنى التي تمثل هدفا تسعى إليه العربية بل و كل اللغات في الشكل الآتي :



إن الدائرتين الأولى والثانية هما مدارات مضيئة ملتفة حول المعنى وقد مثلت لهذا التصور بالدائرة، لأنني أرى أن الكلام مدارات مثلما هو الكون، إذ اللغة باعتبارها نظاما جزئيا من مجموع أنظمة الكون، وهي تدور من اليمين إلى اليسار بعكس اتجاه الزمن الذي يحمل اتجاهاته من الماضي إلى الحاضر،

57 - ممدوح عبد الرحمن الرمالي، العربية والوظائف النحوية، ص50.

58 - اللغة العربية معناها ومبناها، ص29.

(الآن إلى المستقبل .فأكثر ما ترتبط الجملة العربية في زمنها بالماضي لعمقه وتعدد جهاته إذ يحوي تسع جهات، والمستقبل يضم أربع جهات، والحاضر ثلاث جهات⁵⁹ .

فالزمن عند تمام حسان سياقي لا صيغي، مرتبط أشد الارتباط بالأساليب نحو: الخبر والإنشاء .

• الفكر التجديدي الذي ميز عمله برز في عدة جوانب من اللغة؛ إذ جعل اللغة نظاما

تندرج تحته أنظمة صغرى تحكم المباني والمعاني، ولكل خصائصه ومميزاته. فالعلاقات

التي تحكم المبنى غير التي تحكم المعنى، وتجتمع هذه العلاقات وفق تتابع تسلسلي يظهر

في المعادلة الآتية :

المعنى المعجمي + المعنى الوظيفي (المعاني النحوية) = المعنى اللفظي للسياق + المقام = المعنى

الدلالي .

59 - اللغة العربية معناها ومبناها، ص246.